جوانب من التفسير النَّفسيّ والاجتماعيّ للُّغة

د. إسماعيل أحمد عمايرة
أستاذ في اللسانيّات - قسم اللغة العربيّة
الجامعة الأردنيّة
عمان - الأردن

مُلخّص

ترمي هذه الدراسة إلى بيان الأثر الذي تتركه التغيّرات النفسيّة والاجتماعيّة في الظاهرة اللغويّة، وقد قدّمت لتفسير ذلك أمثلة من لغات متعددة. فما دامت القواسم المشتركة بين التركيبة النفسية والاجتماعية للبشر واحدة، فمن المنتظر أن تلتقي اللّغات الإنسانيّة في قواسم مشتركة أيضاً. وقد روعي في تقديم هذه الأمثلة أن تكون متنوّعة، من الفصحى واللهجات، ومن الحاضر والماضي. ومن مستويات اللغة المختلفة: الصوتيّة، والصرفيّة، والنحويّة، كما بينت الفرق بين أن تكون الظاهرة الفرديّة مقبولة فتصبح ظاهرة اجتماعية، أو غير مقبولة، فتكون بهذا ظاهرة مَرَضيّة، أو حالة من حالات الإعاقة النطقيّة.

ABSTRACT

ASPECTS OF PSYCHOLOGICAL AND SOCIAL EXPLANATIONS OF LANGUAGE

This study analyzes the impact of various psychological and social changes on linguistic phenomena. Since human beings are

similar in their psychological fabric and their social structures, it is expected that their languages share some universal aspects in both areas. Many examples are given in this study to illustrate the universal aspects. These examples come from different languages and their dialects, and they are taken from differnt historical periods, from old usage of languages to the modern. This paper also deals with changes which appear in different features of languages; Phonology, morphology, and syntax. In addition, this stydy describes linguistic phenomena which started as individual usage, and in later stages under certain circumstances, were accepted linguistically by their communities. These accepted changes are contrastd with other phenomena which were not accepted, but were looked at as mistakes or speech defacts.

ثمة عوامل مختلفة تتحكّم في عملية النطق اللغويّ، منها ما هو صوتيّ، ومنها ما هو مَقْطعيّ صرفيّ، ومنها ما هو نَفْسيّ اجتماعيّ.. وسوف يكون همّنا الأساسيّ في هذا البحث، أن نقف على هذا النوع الأخير.

ولنأخذ مَثَلاً على النفسيّ. فالغاضب قد تكون مخارج الحروف عنده متسارعة، متتابعة، أي، هو في حالةٍ من التلفُّظ يتأثّر فيها بوضْعه النفسيّ. أما الإنسان في وضعه العاديّ فقد تكون مخارج الأصوات لديه أقلّ تسارعاً وانضغاطاً وتتابعاً، منها في غَضَبه. وهو على أي حال دون المُغَنّي الذي قد يتلذّذ ببعض الأصوات، فيمدّها، فكأنما يُحيل أوتاره الصوتيّة إلى آلات موسيقيّة، تُعبر عن ذلك الوضع النفسيّ الذي يختلف فيه عن الغضبان والعاديّ.

وقد أشار بعض القدماء إلى أهميّة سياق الحال Contex of Situation الذي يساعد على فهم النص، ويتحكّم في نبره وتنغيمه. قال ابن جنّي: «وذلك أن تكون في مدح إنسان والثناء عليه، فتقول: كان واللّه رجلاً! فتزيد في قوة اللفظ بـ (اللّه) هذه

الكلمة، وتتمكّن من تمطيط اللام وإطالة الصوت بها وعليها، أي: رجلاً فاضلاً، أو شجاعاً، أو كريماً، أو نحو ذلك.. وكذلك إذا ذممته ووصفته بالضيق قلت: سألناه وكان إنساناً، وتزوي وجهك وتقطبه، فيغني ذلك عن قولك: إنساناً لئيماً..»★.

ومثال النظام الصوتيّ ما نجده في بعض اللغات التي يَغلب على مفرداتها كثرةُ المقاطع، فإنّ الكلمة متعددة المقاطع تُعين مقاطعها المسموعة في توضيح مقاطعها المحذوفة. ولنأخذ مثلاً على ذلك كلمة restaurant فإن الفرنسية تَسْتغني بنطق restauran عن النطق ببقية الكلمة. وعلى هذا فلا حاجة إلى نطق الصوت t. وتستغني الإنجليزية مثلاً عن نطق الصوت r في نحو leather «جلد»، و «teacher» معلّم وكذلك الألمانية في نُطق Leder «جلد»، و Lehrer «معلّم».

غير أن هذه العوامل اللغوّية والنفسيّة تَبْقى مُتشابكة. وعلى هذا فإنّ الألمانيّ أو الإنجليزيّ قد يَمُرّ بوضع نفسيّ يحتاج معه إلى إظهار صوت الراء، كأن يجادله أحد في أمرٍ هو متأكد منه، فتراه يؤكد على ذلك بإبراز جميع أصوات الكلمة، بما في ذلك الراء. وقد يَضْغط على الرّاء ضَغْطاً، كأنّما يرمي من ورائه جَعْلَ حدود الكلمة الملفوظة كفيلةً باستحضار ما تَرمز إليه، إلى ذهن السامع، من غير نُقصان. فهذه العوامل تَبْرُز وتَختفي في لغة الفرد الواحد بحسب الحالة النفسيّة، ولذا كنا نسمع بعض الناس، وهم يتكلّمون، يغلب عليهم عند الكلام أن يستعملوا الإشارة باليد، أو الرأس، أو الحاجب، أو يَضغطون على مخارج الحروف. أو يُعيدون بعض الكلمات أو العبارات، كما يحدث لكثير من المعلمين، وبخاصة معلمي المراحل الابتدائيّة، أو معلمي الصُّم. وقد ترتّب على هذا زيادة الأساليب التوكيديّة في لغة بعض الناس. ولعّل من ذلك أيضاً التلاعب في نِسب التنغيم Intonation في نطق بعض الكلمات أو الجُمل، تلاعُباً تُحرّكه الحالة النفسيّة، فالتعجب تزداد كمّيته أو تقل، وبالتالي تختلف درجات التنغيم في الجملة التعجبيّة. ويُقال مِثل ذلك في الاستفهام بأنواعه: الحقيقيّ، والتعجبيّ، والساخر. وقُل مثل ذلك أيضاً في درجات النّبر Stress. ولا نستبعد أن تكون ثمة فروق نسبيّة تتدخل فيها بعض القيم

★ ابن جنّي: الخصائص ٢/٣٧١.

النفسيّة والاجتماعية كالكرم، والبُخل، والشجاعة، والجُبن، والغنى، والفقر، والتواضع والكِبْر أو الوضاعة، والحِلْم والنّزق، غير أن الصعوبة تكمن في رصد هذه الفروق، كما تكمن في الاتفاق على حدود واضحة لهذه القيم.

إن المتغيرات اللغويّة النفسيّة والاجتماعيّة قد تغلِب على بيئة لغوية ما، فتصبحُ ظاهرة نفسيّة اجتماعيّة. ومثال ذلك أن تتصور في موقف تعجبّي ما، أن لو كان مصريّ رآه لعبّر بكذا، ولو رآه عراقيّ لعبّر بطريقة ثانية، ولو رآه إنجليزي لعبّر بطريقة ثالثة.. ولو فُحِصت هذه التعبيرات لرأيت أن تعبير المصريّ قد يكون بطريقة الاستفهام التعجبيّ، من خلال جملةٍ تشيع في البيئة المصريّة، إزاء موقف مشابه. وقد تكون استجابة العراقيّ للموقف نفسه من خلال تأكيد الاستفهام بإعادته وقد تكون استجابة الإنجليزي باستفهام تَصْحبه إشارةٌ أو مدّ للصوت. وقد يتعجّب قوم آخرون بجملة تعجبيّة ليس فيها استفهام.

ولا يعني هذا بالضرورة أنّ كل مصريّ أو عراقيّ... لا بدّ، إنْ نحن كرّرنا التجربة، أن يُعطينا النتيجة نفسها. فنحن لسنا بصدد تجارب طبيعيّة، وإنما هي تجاربُ نفسيّة قابلة للتغيير في نتائجها باختلاف الأشخاص ودرجة انفعالهم. ولكن هذه النتائج أو الأحكام تتكرّر في حياتنا تكراراً مؤكداً، حين نستحضر بعض تعبيرات هؤلاء الناس، أو أولئك من أجل التعبير عمّا يدور في أذهاننا على سبيل استعارة طرائقهم وأساليبهم في التعبير، ربما لاعتقادٍ منّا بأن أساليبهم في التعبير عن هذا الأمر أكثر ملاءمة من طرائقنا الخاصة في بيئاتنا الخاصة. وربما تكون تلك الاستعارة تَلْبية لحاجة نفسيّة فينا، تَرمي إلى لفت الانتباه إلى هذا الموقف الغريب باستعمال أسلوب غريب عن البيئة.

إن هذه التغيُّرات اللغويّة منوطة بالحالة النفسيّة، والحالة الاجتماعيّة، والطبيعة اللغوّية، وهي رهينة بالزمن أو التاريخ. فقد تَتَشكّل بعضُ الخصائص اللغوية التي تميّز جيلاً من الأجيال عن جيل آخر، يعود إلى البيئة الجغرافيّة نفسِها. فخذْ مثلاً على ذلك أنّ أهل مدينة الخليل (في فلسطين) الذين كانوا يَحْرصون على إخراج التاء مُشْربة بالسين، قبل جيل أو جيلين من الزمان، لا يحرص أحفادهم على ذلك، ربما تجنّبنا للضغوط النفسيّة أو الاجتماعية التي يَتَعرضون لها نتيجة تَفَرُّدهم في محيطهم الاجتماعي بهذه الظاهرة. مع

أن إشراب التاء سيناً أصلاً، كان يُلّبي حاجة نفسيّة. فالتاء الساكنة صوت انفجاريّ عُرضة للخفاء، وكان السبيل إلى إظهاره، تركيبه مع السين، فتكون السين بهذا سبيلاً أكثر وضوحاً لإظهار التاء الساكنة، ثم اطّردت القاعدة بإكساب التاء قَدْراً من الهَمس في كلّ أحوالها في هذه البيئة الجغرافيّة، استجابة منهم لذلك الحس النفسيّ الذي بالغت فيه هذه البيئة، فعمّمته، فشمل التاء الساكنة والمتحركة. ويشاركهم في هذه الظاهرة بعضُ أهل المغرب، إذ ينطقون التاء صوتاً مُركباً من التاء والسين، فيقولون مثلاً في تَمْر: تسمْر tsamr كما سمعناهم.

وتركُّب التاء مع السين ظاهرة عَرَفتها العربيّة قديماً[1]، إذ حذّر القرّاء[2] من المبالغة فيها.

وهي ظاهرة تتجاوز العربيّة ولهجاتها إلى بعض اللغات الأوروبيّة، فالإنجليزية تَنْطق حرف التاء في كلمة tongs «كمّاشة» مَثَلاً، تاء بدون سين. وينطق الألماني تاء هذه الكلمة مُشْرَبة بالسين tsang، ويكتبونها Zang، ومِثْل ذلك أن يقال في الإنجليزيّة tap وتعني «سداد الحنفية» ويقابلها في الألمانيّة Zapfen، وأن يقال في الإنجليزيّة Ten «العدد عشرة» ويقابله بالألمانيّة Zen وتنطق tsen.

وليس هذا قانوناً مطّرداً في الألمانية في كلّ تاء، إذ اطّراد هذه القاعدة أو عدم اطّرادها مَنوط بعوامل تاريخيّة، ونفسيّة ولغويّة.

وقد حدثت الكشكشة في بعض الكلمات المشتركة بين اللغتين الإنجليزيّة والألمانيّة؛ فالإنجليزيّة تنطِق بعض الكلمات التي تبدأ بـ ch مكشكشة، نحو China «الصين»، وتنطقها الألمانية بالكاف المكشكشة أو بالكاف العاديّة. علماً بأن الأبجديّة الألمانية تخلو من صوت الكشكشة. فالكلمات التي تُنطق كافها على هذا النحو يكون نطقها من باب المحاكاة لنطقٍ أجنبيّ عن هذه اللغة. أي أنّ هذا النوع من الألمان يحاكون بتأثير اجتماعيّ الناطقين بالإنجليزية، وهي محاكاة نلمس أسبابها الاجتماعيّة لدى كثير من الشعوب، التي يحلو لها أن تقلّد شعوباً أخرى، التماساً للتمايز المدنيّ أو الحضاريّ، كالعربيّ الذي يحرص على نطق الكلمات التي دخلت إلى العربية من الإنجليزيّة أو

الفرنسية، بهيئة نطقها عند أهلها – من الإنجليز أو الفرنسيين – دون مراعاة للبيئة اللغوية العربيّة. فهو بنطقه لها على الطريقة الإنجليزيّة مثلاً يسعى إلى إرضاء رغبته في التميّز واستشعار الرُّقيّ.

وقد يُبالغ بعض الناس حين يتكلمون لغتهم بتنغيم، أو نبْر مستعار من لغة أخرى، تبدو في نظرهم – لأسباب اجتماعيّة أو حضاريّة – أرقى من لغتهم الأم. ولعلّ من المفيد في هذا المقام أن نتابع بعض ردود الفعل العجيبة عند فئة أخرى من البيئة الاجتماعية نفسها، وهي تلك الفئة التي تتحرج من طرائق أولئك الذين يلوون ألسنتهم مقلدين غيرهم، فترى هؤلاء يُجهدون أنفسهم بالالتزام بالأشكال اللهجيّة النمطيّة التقليديّة الموروثة، كأن يتكلم بعض المثقفين بنبرة بدويّة مغرقة في البداوة، اعتزازاً بالمحافظة واستشعاراً للأصالة.

وثمة فريق – ككثير من طلبة الخليج – لا يتحرّجون من ظاهرة الكشكشة؛ إذ هي ظاهرة في لهجتهم المحكيّة التي تتمتع باعتبار خاص، مردّه إلى المزيّة الاقتصادية، وما تُفيده من تراتب اجتماعيّ في بيئتهم.

وعلى العكس من هؤلاء فإن بعض أصحاب لهجة ما، قد يستملحون، لأسباب مختلفة، لهجةً مستعارةً، لأغراض الدعاية والإعلان التجاريّ، مثلاً، على نحو ما يفعل كثير من العرب حين يستلطفون اللّهجة المصريّة لتحقيق هذه الأغراض. وقد يتجاوزون ذلك حين يستعيرون هذه اللهجة للتعبير عن بعض المواقف العاطفيّة في أفراحهم وأحزانهم.

وعوداً إلى الإنجليزيّة، فقد نطقت كلمة Chemistry بالكاف المكشكشة، وراوحت الألمانيّة في نطق كلمة Chemie بين الكشكشة والنطق المعتاد لصوت الكاف. ونطقت الإنجليزية كلمة School بالكاف الانفجاريّة، وأحالت الألمانية هذه الكاف إلى ما هو أرخى من الكاف المكشكشة، إذ تنطقها شيناً Schule، على نحو ما يبالغ المصريّ في رخاوة الجيم في كلمة وجه، إذ ينطقها:وِشّ، وهذه الظاهرة الشاذة في اللهجة المصريّة، تمثّل بقايا ظاهرة قديمة في بعض اللهجات العربية، جاء عليها نحو:

«فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة»[٣] حيث قرئت «فأشاءها»[٤]. ومن ذلك قولهم في: اجتر البعير: اشتر[٥]. وهي لهجة تُنسب إلى بني تميم[٦].

وإحالة الكاف إلى صوتٍ مُكشكش، أي صوت مُشْربٍ بالشين، في النطق القديم، والحديث، عند بعض العرب لهذا الصوت، لا يطّرد في كل الكلمات، إذ تتحكم فيه قواعد مُعيّنة تَوقف عندهابعضهم وتجاوزها في التعميم آخرون. وبقي قوم لا يمزجون الكاف بالشين البتة. إنّها عوامل مختلفة معقدّة تتحكم في الظاهرة اللغويّة. وخُذ مَثَلاً على ذلك هذه الفئة من الناس التي تُكَشكش الكاف (كبعض طلبة الجامعة في البيئة الأردنية) فإنهم يَستحيون من هذه الكشكشة في البيئة الجامعيّة التي تَغلت عليها لهجة المدينة، من حيث النظرة النفسية والاجتماعية، فترى الطالب يتخلى عن ظاهرة الكشكشة هذه إذا جاء إلى الجامعة، ثمّ يعود إليها في بيئته الخاصّة.

ولا شك أيضاً في أن البيئة الجامعية تميل إلى تغليب الكاف غير المكشكشة، نظراً لأن الفصحى تختار هذه السبيل. والبيئة الجامعية بعامّة بيئةٌ تنتصر للفصحى بوصفها لغة العلم والثقافة. غير أنّ هذا العامل الثقافيّ ليس هو العامل الحاسم دائماً؛ إذ تبقى العوامل النفسيّة الاجتماعيّة الأخرى تَضْغط الطالب في نُطْقه لحرف القافِ همزةً، استجابةً لعوامل تجعل الغَلَبة في البيئة الجامعية للهجات أهل المدن. وقُلْ مثل ذلك في الذال التي تصبح دالاً، والظاء التي تصبح ضاداً، أو زاياً، والطاء التي تميل إلى رقّة التاء، وغير ذلك من الظواهر النفسيّة التي يستجيب فيها كثير من الناس الطارئين على المدينة للهجة المدينة، وبخاصة أنّها ارتبطت بمستوى مدنيّ أنعمَ من مستوى الريف والبادية وما فيهما من خُشونة نِسبيّة.

وقد يحدث العكس مع ابن المدينة إذا عاش في الريف، فقلّد أهله، فإنه قد يُضطرّ لمجارات أهل الريف في عاداتهم، مجاراةً للأكثريّة في سلوكها الاجتماعيّ، ومنه السلوك اللغويّ.

وقد تُنطق الكاف أو القاف مكسكسة. فأهل نجد يقولون في: كيف حالك: تسيف حالك tsēf ḥālak وفي: قِبْلَة: تسبلة tsiblah. ولا شكّ في أنّ التخلّص من

تعرّض الكاف والقاف الساكنتين إلى الخفاء، نظراً لانحباس الهواء بنطقهما، قد أدّى إلى إظهارهما بهذه الكسكسة، أو بالكشكشة.

ثمّ عمّ ذلك، وتفاوت الناس في تعميمه، أو الامتناع عنه. وقد حدث ما يشبه ذلك في الألمانيّة في نطق الصوت g الإنفجاريّ، في كلمة من نحو Pfenning «ملّيم»، إذ نطقه بعضهم بالكاف الاحتكاكيّة، أو بالشين وهما أوضح نطقاً من صوت g الانفجاريّ الذي يشبه في نطقه نُطْقَ الجيم القاهريّة.

وقد لعبت عوامل كثيرة في شيوع وضعٍ وانحسار آخر، ومن هذه العوامل أنْ غلبت لهجة الحجازيّين، لأسباب دينية وحضاريّة، إذ لم تكن الكشكشة ولا الكسكسة ولا التلتلة من سمات هذه اللهجة. وقد انحاز الناس إلى النمط القرآنيّ السائد. كما سادت لهجة منطقة «هانوفر» اللهجات الألمانية لأسباب دينيّة أيضاً، إذ أصبحت اللغة الرسمية للألمان بفضل ترجمة «الكتاب المقدس» من اللاتينيّة إليها للمرّة الأولى. وسادت الإنجليزيّة والفرنسيّة والإسبانيّة والبرتغاليّة لأسباب استعمارية، ومن ثم سادت الإنجليزيّة لأسباب علميّة.

وثمة عوامل مختلفة أخرى، كالعوامل البيئيّة، والجغرافيّة، والحِرْفية وغيرها، وربما تظهر آثار هذه العوامل دفعة واحدة. ولكنّ نتائجها تبدو على تفاوت الأزمان.

وقد سجّلت لنا العربية حالة من حالات تطوّر الكلمات الفارسيّة. فالعربية أخذت من الفارسيّة في المرحلة الفهلويّة بعض الألفاظ في وَضْعها المكتمل قبل أن ينالها الاختصار والحذف. ومن ذلك أنْ أخذت العربيّة لفظة «ديباك» ومعناها الحرير، فقيل في العربية «ديباج»[٧]، وأخذت العربية لفظة «سَتوك» من الفهلويّة، فعرّبتها العربية بالقاف، فقيل: سَتوق، وهي فراء طويلة الأكمام[٨]. ومما أخذته العربيّة عن الفارسيّة الفهلوية: السبِّيج، أي القميص، وهي بالفارسية الفهلوية «شبيك». وقال ابن منظور: وأصلها بالفارسية: شبيّ»[٩].

فأين ذهبت الكاف من «شبيك» الفهلوية الفارسيّة، التي يذكرها ابن منظور على أنّها فارسيّة مُعرّبة، ولكنه لا يذكر الكاف في أصلها الفارسيّ؟ إن ابن منظور يَذْكر

الكلمة كما انتهى إليه نطقها في مرحلة الفارسيّة الحديثة، وهي التي تَلت مرحلة الفارسيّة الفهلويّة. وقد تطوّرت هذه الكلمات تطوّراً أدى إلى فقدان بعض أحرفها. وعلى هذا فإن: ديباج، المُعرّبة قد أُخذت عن الفارسيّة الفهلويّة: ديباك. وأمّا في الفارسيّة الحديثة فهي: ديبا. وكذلك: السبيج، إذ هي مُعرّبة عن الفهلوية: شَبيك، وهي في الفارسيّة الحديثة: شبي. وأما: الستوق، فهي في الفهلوية: ستوك، وفي الفارسيّة الحديثة: ستو.

وأما كلمة: ديباج، فتُذكر في مادة: دبج، بالجيم في بعض مشتقاتها، وبدون الجيم في بعضها، وذلك نحو قولهم: ما في الدار سَفْرٌ ولا دِبِّيج، ولا دَبّيج، ولا دِبيّ ولا دَبيّ»[١٠]. وهذا يدلّ على أن هذه الكلمة أُخذت مَرّتين: مَرّة من الفارسيّة الفهلوية، وأخرى من الفارسيّة الحديثة[١١]. وفي هذا مؤشّر واضح على أثر التغيير الاجتماعيّ الذي يجعل من اللغات شاهداً على المفارقة اجتماعياً بين الأجيال، وحتى في البيئة الواحدة. فاللغة مظهر اجتماعيّ متطور كسائر المظاهر الاجتماعيّة، ولكن على تفاوت بين اللغات، وتفاوت بين المظاهر الاجتماعيّة بعامة. وعلى أي حال، فحذف الصوت الأخير في الفارسيّة الحديثة، وإثباته في المرحلة السابقة: الفارسيّة الفهلوية يُذَكّر بما تعرّضت له العربية (يكن ← يك) واللاتينيّة والفرنسية (restaurant → restauran)، والإنجليزية (teacher → teache)، والألمانية (Leder → lede). على أن هذا الحذف أو ذاك مرهون - كما أسلفنا - بالحالة النفسيّة، ومشروط بدرجة الوضوح، وبالعرف اللغويّ الاجتماعي، وعلى هذا فإن حذف النون من «يكن» في العربيّة مشروط بقواعد تنصّ عليها كتب اللغة[١٢].

وقد تحذف اللغات بعض الأصوات من أوائل الكلمات، كما في العربيّة التي حذفت الواو من عِدَة، وزِنَة، وحذفت الألمانية الصوت p من الكلمات التي تبدأ بـ pf نحو Pfund «رطل» فنطقها بعض الألمان Fund، وبذا يكون هؤلاء الألمان قد تخلّصوا من الصوت الانفجاري p مكتفين بالصوت الاحتكاكيّ f وبخاصة أنّ الصوتين قد جاءا متجاورين دون صائت يَفْصل بينهما. والصوت p كثيراً ما يَتَحول إلى f كما هي الحال في الآرمية، والسريانيّة، والعبريّة (بحسب قواعد الظاهرة المعروفة في هذه اللغات بظاهرة «بجد كفت»). أما الإنجليزيّة فقد نطقت كلمة Pound بالصوت p، ولكّنها وَسّعت

في كميّة الصائت، حرصاً على وضوح السّمة الانفجارية في الصوت p.

وحذفت الإنجليزية الكاف نطقاً من Knife «سكين»، وحذفت الكاف وأصواتاً أُخرى في Knowledge. ويبدو أن حذف الكاف هنا للأسباب نفسها التي مرت، وقد أدَّت إلى أن يَحذف بعض الألمان صوت p في Pfund، و Pflanze «نَبْتة». وقد أبقت الإنجليزيّة الرمز الكتابي مَعْلَماً تاريخياً يشير إلى مرحلة سابقة كانت تنطق فيها هذه الأصوات. ومثال ذلك في العربية كلمة «مائة» التي كانت ألفها تُحَقّق. والأمثلة على ذلك من السريانيّة أوفر، نحو الياء في: ܗܠܝܢ ܕܟܬܒܝ hālēn daḫtab(i) «اللواتي كتبن» فإن الحرف الأخير لا يُنطق، وقد وضع السريان تحته خطاً إشارة إلى أنه يُكتب ولاينطق(١٣)، وقد ظلّت كتابته ترمز إلى مرحلة كان فيها يُكتب ويُنطق. ومن هذه الظاهرة في اللغة الآرامية أن يُحذف الصوت الأخير من حرف الجر: على، فيقال: ܥܠ ، وقد أثبتته العبريّة أيضاً: עֲלֵי ᶜalḗ.

واعترى الحذف الكلمات من أواسطها، فقيل في العربية: آلّ، وأصلها: أهل، وآمَن، وأصلها أأْمن (عُوّض بالمدّ عن المحذوف)، وكذلك في: أُومن، وأصلها: أُؤمن، وإيمان، وأصلها: إئمان. وحذفت الإنجليزيّة من الوسط بعض الأصوات التي ما تزال الألمانية تحتفظ بها في نحو night وهي في الألمانية nacht. وحذفت الفارسيّة الحديثة صوت الواو من كلمة: خواش ẖavaš ومعناها «الطيب» بالفارسية الفهلويّة(١٤)، فأصبحت الكلمة خَشْ(١٥) وقد أُخذتها العربيّة من الفارسيّة الحديثة. وفقدت الفارسيّة الحديثة نطق الواو في: خواجا، ومعناها السيد. فقيل: خاجا، ولكنّ العربيّة راعت عند أخذ هذه الكلمة شكلها الكتابيّ المحافظ، ولم تراع تطورّها النطقيّ.

وقد يسْتَصعت أهلُ لغةِ النطقَ بأصوات متماثلة متتابعة فيتصرّفون إزاء ذلك بالحذف أو التغيير في النطق. فالعربية حذفت تاء من «تتذكّرون»(١٦) ولكن هذا لم يستمر في عصور العربية اللاحقة، خوفاً من شُبهة اقتراب المضارع من الأمر، وبخاصة في أزمنة أصبحت فيها الظاهرة الإعرابية تفقد بعض أهميتها. وقد أحالت بعض اللغات الأوروبية كالألمانية والإنجليزية الكلمات التي تبدأ بصوتي ph إلى فاء. والعربية أحالت صوت الباء المجهورة b في كلمات من نحو: سَبت sabt، و: نَبْت nabt إلى ما يشبه

الـ p المهموسة لمجاورة الباء المجهورة b صوتين مهموسين. فنطقت: سبت sapt، ونبت napt، رغم خلوّ العربية أصلاً من الصوت p، إذ انحلّ هذا الصوت الساميّ القديم إلى فاء في الحبشية والعربيّة[١٧]، تخلّصاً من شدة انفجاريته وهَمْسه، واحتفظت به بعض اللغات السامية كالآراميّة، والسريانية، والعبرية، بوصفه تلويناً صوتياً للفاء بحسب قواعد ظاهرة «بجد كفت»[١٨] في هذه اللغات.

والعكس من ذلك حدث في إحالة التاء إلى صوت مجهور لمجاورته للمجهور، في نحو: ادّعى، التي أصبحت: ادّعى، وازتهر ← ازدهر، ومُذْتَكر ← مذّكر أو مُذّكر...

إنّها العوامل اللغوية والنفسية و الاجتماعية، تَظْهر آثارها على فترات من الزمن وتَتَشكل في صورة مراحل تاريخية، تفْصل بين أطوار اللغة، وتجعل من حركة اللغة موجات متدافعة، أو حلقات متداخلة، ولكنها تدافعاتُ عوامل بشريّة تظهر فيها المفارقات النفسيّة والاجتماعيّة التي تميّز الأجيال واللهجات عبر رحلة الزمان والمكان.

وأود أن أذكر بعض الأمثلة اللغويّة من العربيّة، التي يمكن تفسيرها تفسيراً نفسياً.

فمن المعلوم أنّ المبدأ النفسي من حيث الاطمئنان إلى قُدرة اللفظ على توصيل المعنى أن عدم توصيله يجعل الناس يتصرّفون، ولْنضرب مثلاً على ذلك بكلمات فيها أصوات انفجاريّة، فإن الأصوات الانفجاريّة تكون عُرضة للخفاء عند سكونها، كالكاف في بكْرْ، والدال في دعْدْ، وبَدْرْ، وبخاصة إذا تُليت بساكن، كأن يُوقف على الراء، والدال والراء، في الكلمات السابقة. ولذا احتاج المرء إلى تحريك الصوت الانفجاريّ لإظهاره من جهة، وللتخلص من التقاء الساكنين - على جوازه في أواخر الكلمات عند الوقف - فيقال: بَكِر، أو بَكُر، بتحريك الكاف، وهم يعودون عن ذلك في الوصل، فيقال: رأيت بَكْراً بتسكين الكاف؛ لأنهم أمِنوا من خفاء الصوت الانفجاريّ.

وقد عبّر ابن جنّي عن هذا بقوله: «ويقولون في الوصل: هذا بَكْرْ، ومررت بِبَكْرْ، فإذا وقفوا فمنهم من يقول: هذا بكُرْ، ومررت بِبَكِر»[١٩].

ومن الشواهد على ذلك قول الشاعر:

أرتنيَ حِجْلاً على ساقها ... فَهَشَّ الفؤادُ لذاك الحِجِلْ
فقلتُ، ولم أُخْفِ عن صاحبي ... ألا بأبي أصْلُ تلك الرِّجِلْ

قال ابن جنيّ بعد أن أورد البيتين: «ويريد الحِجْل، والرِّجْل، ولكنه كَسَر الجيم في الوقف. فهذا وأشباهه مما يَكْثُر تعداده، يدلُّ على أن الوصل تجري فيه الكلمة على أصلها، وأن الوقف من مواضع التغيير».[٢٠]

وقد عُمّم ذلك على الأصوات الانفجارية وغير الانفجارية، كما في نَهْر ونَهَر. وقد عُمّم كذلك في الوصل والوقف، كما في المثال السابق. وبعض العامّة تقول (في الأردن وفلسطين مثلاً): بِنِت، في الوقف، وفي بعض حالات الوصل (بِنِت عَمّي). ولكنهم لا يُحرّكون النون في: بنْتك، مثلاً، تَجَنُّباً لتوالي المقطاع المتشابهة (وهنا تُجُنّب المقطعان القصيران المفتوحان وبعدهما قصير مغلق على سبيل الثِّقل وليس التعذّر).

وقد بالغ بعض الناس في الخوف من الخفاء، فجعل بعضهم لا يَقتصرون في القلقلة على أصوات القلقلة (قطب جد)، بل سمعنا منهم من يُقَلْقل الزاي، والغين، فيقرأ: «المغضوب عليهم» بقلقلة الغين، وقد تُقَلْقل اللام والراء مثلاً عند العامة لمجرد سكونهما، فيقرأون: «إذا زُلزلت الأرض زلزالها» بقلقلة اللام، والراء في الأرض.. وكذا جميع الصوائت الساكنة.

وظاهرة القلقلة نفسها، التي تُمَثّل ظاهرة لغويّة صحيحة في أصوات القلقلة (قطب جد)، إنْ هي إلا محاولة لإخراج هذه الأصوات من الإخفاء إلى الإظهار.[٢١]

لقد مرّت بنا أمثلة من لغات مختلفة يتعرّض فيها الصوت الأخير للسقوط من النطق، كما هي الحال في تاء التأنيث في العربيّة إذا وُقِف عليها، فقيل في نحو ليلة laylah → laylatun و laylā للعلم المؤنث، و laylā' (صفة)، أو ليلْ، للعلم المرخّم، وتحريكها بالفتح layla على لهجة «من ينتظر» أو بالضم laylu على لهجة «من

لا ينتظر». ومِثْلها تاء التأنيث في اللغات الساميّة التي تظهر في الإضافة وتختفي في غير الإضافة. ومن أمثلة ما حدث في وسط الكلمة أن يقال: ظَلْتُ، بدلاً من ظَلَلْتُ، ولم يَسْطِع بدلاً من: لم يستطع. ومن الحذف في وسط الكلمة في السريانية، أن تُحذف النون ويُعوض عنها بتشديد التاء في نحو ܡܕܝܢ݈ܬܐ «المدينة». و ܐܢ݈ܬܝ «أنتِ»، حيث حُذف من آخر الكلمة ووسطها، إذ أصلها أنتي ’antī، فأصبحت ’att، وقد يحدث الحذف من أول الكلمة، ومنه في العربية: خير، من أخْير، وشَرّ، من:أشَر، ومنه في العبريّة حذف الصوت الأول من الضمير: نحن: אֲנַחְנוּ ’anaḥnū ← naḥnū، وقد تُحذف الحاء فتصبح אָנוּ ’ānū. ومن المبالغة في الحذف أن يقال في العربية: قِ بدلاً من أوقي، و: عِ بدلاً من أوْعي.

حدث هذا كلّه لأن القائل قد اطمأنّ إلى إيصال فكرته، واستدل على ذلك بتجاوب السامع. وقد شَعَر كلٌّ منهما بشيء من الاقتصاد اللغويّ، الذي يؤدي المعنى كاملاً بجهد لغويّ قليل. ويُذكّر هذا من جانب أسلوبيّ أدبيّ باستخدام التوقيعات الأدبية، والأمثال، والحِكَم البليغة، والرموز ، وضروب المجاز.. في الوصول إلى المراد بمجهود مُقتصد، وكلام أقلّ وأدلّ.

ومن أمثلة العربيّة على هذا في مجال النحو، أنْ تُبَت الفعل على حال واحدة، بغضّ النظر عن وضع الفاعل، مفرداً كان أم مثنى أم جمعاً. وذلك في نحو: جاء الطالب، وجاء الطالبان، وجاء الطلّاب. مع أن بعض اللهجات العربيّة قديماً، وجلّها حديثاً، ظلت تسير على الأصل الساميّ القديم الذي أسماه النحاة «لغة أكلوني البراغيث»، حيث يُثّنى الفعل مع الفاعل المثّنى، ويُجمع إن كان الفاعل جمعاً، في نحو قوله تعالى ﴿عَموا وصَمّوا كثيرٌ منهم﴾(٢٢)، وقوله تعالى: ﴿وأَسرّوا النجْوى الذين ظلموا﴾(٢٣).

وقد اتجهت اللغات الساميّة من الإعراب إلى البناء حتى زال الإعراب زوالاً تامّا من بعضها كاللهجات العربيّة الحديثة، واللغات الساميّة كالعبريّة والآراميّة... واحتفظت به الفصحى، والأكاديّة، والأوغاريتيّة.

ولْننظر إلى مَثَلٍ طريف من الفصحى، يُمَثّل أثر الجانب النفسيّ والاجتماعي في

أدائها. فالإعراب وسيلة من وسائل العربية في أداء وظيفة معنويّة، تضاف إلى وظائفه الأخرى المتعلقة بنظامها في وصل الكلام. وتظهر هذه الوظيفة في الاطمئنان إليها عند تأخير المفعول وتقديم الفاعل، في نحو: ضرب زيداً عمرو. فلا شك هنا في الدور الوظيفيّ للحركة الإعرابيّة، ولذا جاز التقديم والتأخير، ولكنه لم يَجُز في نحو: ضَرَب موسى عيسى، إذ لا بُدّ هنا من الترتيب، فالفاعل هو الأوّل، والمفعول يليه. إذ ليست هنالك علامة إعرابية تُسعف في هذا الشأن. ولكن اللغة أجازت تقديم المفعول على الفاعل، إذا كان المعنى غير مُلْبس في نحو: أرضعت الصُّغرى الكُبرى. وعلى هذا فإنّ الفصحى تمتلك هذه الأدوات الثلاث: الحركة الإعرابيّة، والترتيب، والقرائن المعنويّة، وهي تراوح في استخدامها بحسب درجات الوضوح الذي يضمن عدم اللبس في تحقيق التواصل بين الناطق والسامع.

وتُحقّق الحاجة إلى أدوات تختصر الكلام وتُنسّقه مبدأ اقتصادياً، فحروف العطف والربط تختصر الكلام. والاقتصاد اللغويّ يمثّل أساساً اجتماعيّاً ونفسيّاً مريحاً في اللغات البشريّة والتواصل الإنسانيّ. ومن أمثلته في العربية حذف المفعول في نحو قوله تعالى: ﴿ما ودّعك ربك وما قلى﴾ وحذف الفاعل، وحذف المبتدأ، وحذف الخبر... ومن الأمثلة الصرفيّة انحسار الأوزان الفعليّة القياسيّة، وعدم التوسع في صِيَغ المثنى والاستعاضة عنه بالجمع. وقد كاد المثنى يضيع من أكثر اللغات الساميّة، كما ضاع من اللغات الهنديّة الأوروبيّة، إلا من بقايا نادرة، بل إن التعبير عن المثّنى والجمع، بعلامات التثنية والجمع، هو في حد ذاته نوع من التحقيق لمبدأ الاقتصاد اللغويّ.

ويفسر لنا هذا المبدأ أيضاً حالاتٍ من الحذف والإدغام، على نحو ما يحدث في نون: بنت في بعض اللهجات (المصريّة) وبعض اللغات (السريانيّة)، وفي نطقنا لكلمة: وجدت wağadtu بتاء مشددّة wağattu مع الاستغناء عن الدال المدغمة في التاء. ومنه في الألمانية، أن كلّ كلمة تَبِعَت فيها الدال تاء، نحو stadt فإنها تنطق تاء مشددّة statt «مدينة». مع أن نطق هذه الكلمة على هذا النحو الاقتصاديّ يلتبس مع نطق كلمة أخرى، وهي statt «بدلاً من». وقد تُرِك الأمر للسياق وحده. وبذا تكون اللغة قابلة للتضحية ببعض جوانب اللبس المترتّب على التشابه النطقيّ، مراعاة للقوانين الصوتّية،

واعتماداً على السياق. وهذا ما فعلته العربيّة في بعض الصيغ المُلْبسة، في نحو: الوطن مُحتلّ، والعدو مُحْتَلّ، فلا يُفرّق بين اسم الفاعل واسم المفعول سوى السياق، وقُلْ مِثْلَ ذلك في نحو: مختار، التي قد تُستعمل في سياقٍ، اسم فاعل، وفي آخر اسم مفعول. وعلى هذا فقد ضحّت اللغة بالفرق الصيغيّ بين المشترك من الأوزان كاسم الآله، وأوزان المبالغة، واسم المفعول، والمصدر الميميّ وتركت الأمر للسياق.

ومن الاقتصاد اللغويّ نُطْق بعض اللهجات لقولك: من هنا ← مِنّا (الحجاز)، وتنطِق بعض اللهجات: من عندنا ← من عَنّا (الشام). وفي هذا إدغام ونَحْت. والنحت يحقق مبدأ اقتصادياً أفضل، إذ به تتكون كلمة من كلمتين أو أكثر. وهي ظاهرة عرفَتْها الفُصحى واللهجات. ولكّنها قليلة نسبيّاً، إذ حققت العربية واللغات الساميّة هذا المبدأ الاقتصاديّ بظاهرة الاشتقاق. والعربيّة لغة اشتقاقيّة، وليست لغة إلصاقيّة تركيبيّة كما هي الحال في اللغات الأوروبيّة. ومن أمثلة النحت القديم: أيْش، (من: أي شيء)، ومُذ (من: مُنذ، التي هي من: مِن + إذ)، والبسملة، والحوقلة...

وحالات الإدغام كثيرة في الفصحى واللهجات، كإدغام النون في النون، والميم في الميم، والنون في الميم، واللام، والراء...

إنّ الإدغام مبعثه طُمأنينة من القائل إلى أن السامع سوف يَفهمه، وهو نوع من التسهيل والاقتصاد في النطق يُيَسّر على القائل القول، وعلى السامع الفهم. ولعلّ من أطرف أنواع الإدغام أن يغيّر الناطقُ الحرفين المدغمين، فيأتي بدلاً منهما بحرفين آخرين مُدغمين، كما أُثِرَ عن بعض العرب قولهم: عَلِجّ بدلاً من: عليّ، وأُمْسجّاً بدلاً من: أُمسيّا، وهكذا. فإذا وَقَر في النفس أنّ الإدغام سوف يؤدي إلى اللبس، فإنه يُتَجنب، حتى عند الوصل، خشية اللبس، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وقيل من راق﴾[٢٤]. فقد أُظهرت النون هنا[٢٥]، حتى لا يَذْهبَ الذهنُ بعيداً عن معنى الآية، فيما لو نطقت: مَرّاق. بل وُقِف قليلاً على النون إمْعاناً في إظهارها. على أن هذه الرغبة، تبقى حركة نفسيّة غير مُلزمة، ولا ترقى إلى مستوى القاعدة. إذ تميل إليها النفس كلّما تنّبهت إلى خطورتها.

وقد يرى بعضهم في الإدغام مجالاً للبس أو الصعوبة في النطق، فيتحلّل منه بإقحام حرف جديد على الكلمة، نحو: حظّ ← حنظ[٢٦]، وإجّاص ← إنجاص، والأُتْرُجّه ← الأُترنْجه.

وقد يتخفّف بعض الناس في اللهجات من هاء الضمير المؤنّث في نحو: ضَيْعَتُها، فتصبح: ضَيْعِتّا. وبنْتُها: بِنتّا. ومثل هذا حدث في الهاء من أداة التعريف الآرامية، وهي هاء وألف في آخر الكلمة. فيقال: بَيْتا، بدلاً من: بَيْتها وتعنى: البيت. ومن ذلك التخفيف من حركات الإعراب الطويلة في العربية، في الأسماء الستة، كأن يقال: رأيت أبَها، وهذا أبُها، وسلمت على أبِها.

وقد تُدغم الأصوات المتشابهة التي يشكّل تعاقُبُها عائقاً نطقياً، فيقال في: تدارك: ددارك، ثمّ يُدغم الصوتان المتماثلان وتُستجلب همزة الوصل نظراً لصعوبة البدء بساكن في اللغات الساميّة، فقيل: ادارك، والعربية تتخلّص من البدء بساكن باستجلاب الكسرة التي توفّرها لها همزة الوصل، بينما ألحقت العبريّة الحرف الأول بالفتحة في بعض الكلمات، نحو: ben «ابن». ومثلها في ذلك مثل الآرامية: bar «ابن»[٢٧]. أما اللغات الأوروبية مثلاً فقد أجازت البدء بساكن، بل قد يلتقي فيها أكثر من ساكنين.

إنّ هذه القوانين الصوتيّة كالإدغام وفكّه، والحذف، والتنغيم، والنبر، وغير ذلك من ظواهر صوتيّة، تكمن وراءها أسباب نفسية اجتماعيّة تجعل اللغات على اختلافها تتشابه بمقدار أو بآخر لأن النفوس البشريّة على اختلاف ما بينها، وعلى‌تعدّد لغاتها تبقى بينها أواصر جامعة في السلوك، والانطباعات، والأهداف، والطموحات. واللغة نوع من السلوك النفسيّ والاجتماعيّ الذي يعبّر عن ذلك كلّه تعبيراً يبدو متباعداً في جوانب، متقارباً في جوانب أخرى. وعلى هذا كان لنا أن نقف على أسَر من اللغات، يشتدّ الشبه بينها في كثير من الجوانب النفسيّة واللغويّة، كالإدغام، والنبر، والصرف، والنحو، والمزاج البيانيّ. وقد يقل ذلك التشابه. بَيْد أنّ قدراً، ولو يسيراً من الأرضية المشتركة، يظل مُتسعاً لبعض ملامح الصورة المشتركة بين اللغات والنفسيات جميعاً.

وعلى هذا كان لنا أن نفسر كيف تلتقي اللغات الساميّة، والحاميّة، والهنديّة

الأوروبية، وغيرها، في بعض مناحي الشبه، رغم تباينها من حيث الأُرومة الأُسرية التي تنتمي إليها، وتتوثق عُرى الصلة بين اللغات التي تجمع بينها صلةٌ من القرابة والنّسَب، إن التقت شعوبُها في بيئة ثقافيّة وجغرافيّة وتاريخيّة.. واحدة. أمّا اللغات التي تلتقي بالمصاهرة والاحتكاك، دون الانتماء والارتباط بصلة من القرابة والنسب، فإنها تتشابه في بعض الجوانب المتغيرة من اللغة، أكثر من التقائها في ثوابت اللغة. فتقديم الصفة على الموصوف في اللغات الهنديّة الأوروبية، كالفارسيّة، والإنجليزيّة، والألمانيّة، يُمثّل نمطاً تأتلف فيه هذه اللغات. وهو يختلف عن تقديم الموصوف على الصفة في اللغات الساميّة، ويعود هذا بطبيعة الحال إلى الجانب النفسيّ في تركيبة هذه الأمم. فالذي يقدم الصفة على الموصوف، يُوليها أهميّة أكبر، بوصفها أبرز ما يُريد إظهاره من الموصوف. والذي يقدّم الموصوف على الصفة يَبْقى الموصوف عنده الشخصيّة المركزيّة التي تمثل الجوهر. وأمّا الصفة فتمثل الحالة العارضة، أو الحالة الجزئيّة، لكن الأصل عنده يبقى هو الأهم، ولذا استحق الإبراز أوّلاً.

ومع ذلك الاختلاف بين المجموعات اللغوية، فإن بعض النواميس العريضة تبقى جامعاً مُتَوَقّعاً بينها كتكوُّن الجمل من بسيطة، ومركّبة، ومُوَسّعة، ومؤكّدة، وغير مؤكّدة، ومُثبتة، ومنفيّة، وتعجبيّة، واستفهاميّة، وإنشائيّة، وخبريّة... إذ لا يكاد المرء يتخيل خُلُوّ لغة من اللغات من هذه الأنماط أو بعضها. لأن الحاجة إليها حاجة نفسيّة واجتماعيّة إنسانيّة، وإن اختلفت كلّ لغة عن الأخرى في المواصفات الخاصة بهذه الأنماط، كأن تُقدّم لغة أداة الاستفهام كالعربيّة، وتؤخّرها أخرى، كالقبطيّة، وتَحْذِفَها ثالثة، معتمدة على التنغيم، أو تقديم الفعل.... أو كأن تجمع هذه بأداة مُعَيّنة للجمع، وتُفْرِد بأداة مُعَيّنة للمفرد (ليس في العربيّة أداة للإفراد بعكس الإنجليزيّة، والألمانيّة، والفرنسيّة)، أو تجمع بزيادة مقطع، نحو: صرصرة، أو بزيادة كميّة الحركة كما في نحو: فاطمة ← فاطمات = Fāṭimat(u) ← Fāṭimāt(un)، ومُعَلّمٌ ← معلّمون = mu^{c}allim(un) ← mu^{c}allimūn(a)، أو تستكثر بإحدى صيغ التكثير، وهي تؤدّي إلى نوع من الجمع، كما هي الحال في التضعيف، نحو: قطّع، وتقطّع، إذ تدّلان على الكثرة، ولا تدل على ذلك صيغة قَطَع، أو بإعادة الكلمة كما هي الحال في اللغات الأندونيسيّة. لقد أغرى ما بين اللغات من تشابه «روجر بيكون» بقوله: «إن مبادىء النحو

في كلّ اللغات واحدة، وإن كانت تختلف بعض المبادئ بين لغة وأخرى مصادفة»[٢٨].

إنّ الجانب النفسيّ يُملي أحياناً نوعاً من الحالات التي تستلزم الضغط على جزء مُعَيّن من الكلمات، كأن يكون أوّلَها، أو آخِرَها. فالعبريّة، والآراميّة، والسريانيّة، يغلب أن تَنْبُرَ المقطع الأخير من الكلمات، نحو qatál، والألمانيّة تركز على المقطع الأوّل نحو: sagen, haben.

لا شكّ في أنّ موقع النّبر له دوافع نفسيّة قبل أن يُصبح سلوكاً لغويّاً اجتماعّياً، وقواعد لغوّية مقرّرة. فاللغة أو اللهجة التي تنبر مقطعاً ما، من الكلمة أو الجملة، تَعني إبرازه والإبانة عنه. وقد أدرك ابن جنيّ هذا الملحظ وهو يفسّر بعض اللهجات العربيّة التي تُرَكّز على المقطع الأخير. ومن الأمثلة التي ذكرها بهذا الصدد:

- وقوف بعض العرب على نحو: قال، بالألف: قالا، بدلاً من التسكين العارض للوقف: قَالْ.
- وقوف بعض العرب على ضمير المتكلم المنفصل بالهاء، فقالوا: أَنَهْ، أو بالألف، فقالوا: أنا، وهو في الأصل: أنَ بالفتحة، أي الصائت القصير. أي أنّ ana' تصبح anā' أو anah'.
- تشديد الحرف الأخير، نحو قول الشاعر:

ضَخْماً يُحِبُّ الخُلُقَ الأُضْخَمّا

قال ابن جني:«يريد الأُضخَمَ خفيف الميم، وهذا التثقيل إنما يكون في الوقف، ليُعْلم باجتماع الساكنين في الوقف أنه متحّرك في الوصل حرصاً على البيان، وعلى هذا قالوا: خالدّ، وهو يجعلّ، فإذا وصلوا قالوا: خالدٌ يا فتى... وهذا أكثر من أن أضبطه لك لسعته وكثرته»[٢٩].

ويستوقفنا في الحديث عن الجانب النفسيّ والاجتماعيّ قول ابن جنيّ: «حرصاً على البيان». وممّا يجدر ذكره أننا ما نزال نسمع هذه اللهجة، وبخاصة في بعض البيئات البدويّة في بلاد الشام، وهي معروفة في بلدان المغرب العربيّ، حيث يشدّدون في نطق

الحرف الأخير، في نحو: حَسَنّ، وأحمدّ... إن هذا التشديد يبعث في النفس بعض الطمأنينة في نفس القائل، لعلمه أنه بهذا أَوْصل اللفظ إلى السامع من غير ريب، ثم يصبح الأمر بعدئذٍ عُرفاً اجتماعياً. ومنه في الإنجليزيّة تشديد الأسكتلنديين لصوت الراء في آخر الكلمة، الذي قلّنا سابقاً إنّ الإنجليزيّة تتخفّف منه. ثمّ أليس من ذلك أيضاً نطق بعض الكلمات في العربيّة لصوت الألف مقصوراً وممدوداً في بعض الكلمات، نحو: مينا وميناء... وانظر كذلك قولهم سِعْلى وسِعْلاة وسِعْلاء، وحُبْلاً، وحبْلَى.

وقد رأينا إشارة ابن جنيّ إلى الضمير: أنا، إذ هو في الوصل بفتحة ana'، ثمّ مُطِلت الفتحة عند الوقف: anā' حِرْصاً على الفتحة من الضياع. وقد أشار ابن جنيّ إلى أنّ من العرب من يقلب الألف ياء عند الوقف. قال:«ألا ترى أن منهم من يقول في الوصل: هذه أفعيّ يا فتى، كما يجب، فإذا وقف قال: هذه أفعَي، فيبدل الألف ياء، ومنهم من يقول: أفْعَو، فيبدلها واواً»[٣٠]. إن هذه المخالفة في التلوين الصوتيّ للألف عند الوقف هي ما نجده بين العربيّة والعبريّة، في بعض الكلمات، كالضمير: أنا، في العربيّة الذي مال نحو الياء في العبريّة אֲנִי ani'، وفي بعض اللهجات العربيّة المعاصرة (شمال الأردن). وقد أمالته بعض اللهجات اليمنيّة المعاصرة كذلك، ولكنها إمالة موظّفة توظيفاً دلالياً، أي هي إمالة فونيميّة، وليست ألفونيّة. إذ هذه الإمالة إشارة إلى التأنيث وعدم الإمالة خاصّ بالمذكّر، قياساً على: أنتَ وأنتِ. وهو قياس يظهر فيه التوظيف الاجتماعيّ للغة.

ومن المظاهر النفسيّة ظاهرة الإعلال والإبدال. ولنوضّح ذلك من خلال بعض الأمراض النطقيّة، ممثلة في صعوبة أن ينتقل المريض من وضع تصويتيّ إلى آخر، فثالث، باختلاف كلّ صائت عن الآخر. فقد لاحظنا أنّ بعض الإعاقات النطقيّة تَظْهر في نُطق كلماتٍ من نحو: أُكِلَ، أو ضُرِبوا، إذ يتطلّب نُطْق هذه الكلمات الانتقال من الضّم إلى الكسر فالفتح؛ أو من الضم إلى الفتح، فإلى الضم ثانية. وسبب الإعاقة هنا منوط باختلاف التحوّل من صائت إلى آخر، بما يتطلّب سرعة في التشكّل والانتقال من وضع نطقيّ إلى آخر، فترى المعاق يختصر بعض هذه المراحل، كأن يقول: ضُرُبُوا، وضُرُبَ، وهو نوع من الإتباع الصوتيّ. وهذا يُذكّر بإتباع السين المفتوحة في كلمة: سَنَة إلى الياء

(الكسرة الطويلة: سِنين، أو إلى الواو (الضمة الطويلة) سُنون. ومن ذلك: عِشْرين وعُشرون، وهي في المفرد بفتح العين: عَشْر، بَيْدَ أن هذا الإتباع لا يُعَدّ إعاقة مرضيّة، لأنه مُقرّ في السلوك الاجتماعيّ للغة.

ولّما كان الأُصحّاء لا تنقصهم القدرة على التشكّل، بل أصبح في مقدورهم استثمارهُ لغايات المعنى، فإن قصور المعاقين يبدو واضحاً لدى الأُصحاء، حين لا يستطيع المعاقون مجاراتهم في ذلك. وتصبح هذه الحالة من العجز مظهراً من مظاهر الإعاقة، يرصدها الحسّ الجماعيّ كّلما ظهرت أعراضها على الحالات الفردّية.

ولو راقبنا الأُصحاء لرينا أنّهم يعلنون في صورة عُرفٍ لغويّ تقرّه الجماعة عن حالات من العَجْز المشابهة في كثير من الظواهر. ومن ذلك أنّ التشكيل الصوتيّ لكلماتٍ من نحو: قُوِل، وبُيِع، كان صعباً حتى على الأُصحّاء، نظراً لوجود الواو والياء، فأقرّت الجماعة الإعراض عن ذلك إلى: قِيل، وِبيع. واستصعبَ العُرف الاجتماعيّ أن يقال: التقاضُي (على وزن التفاعُل) فقيل: التقاضِي، واستُصْعِب أن يقال: التغنُّي (على وزن التفعُّل) فقيل: التغنِّي بالكسر، وقيل: بِيد (جمع بيداء)، والقياس أن يقال: بُيْد (فُعْل)، وكلّ هذا هَرَباً من الانتقال من الضمة إلى الكسرة، فكسروا ما قبل الياء مجانسةً لها. وقد أقرّت القاعدة النحْويّة بصعوبة ظهور الحركة على نحو: التقاضي، والقاضي، والتغنّي والمغنّي... فقيل منع من ظهورها الثِّقَل. واستصعبت اللغة أن يُقال: قاضيٌ qā/ḍi/yun، وقاضي qā/ḍi/yin في الرفع والجرّ، فشكّلت من المقطعين الأخيرين ḍi/yun، ḍi/yin مقطعاً واحداً، وهو مقطع قصير مغلق ḍin. وترتّب على ذلك حذف yu من الكلمة المرفوعة، و yi من الكلمة مجرورة. ولم يحدث مِثْل ذلك في النصب: قاضياً qā/ḍi/yan، ربما حِرْصاً على عدم طمس الظاهرة الإعرابيّة، إن هم فعلوا ذلك في الحالات جميعها: الرفع، والنصب، والجرّ.

ومن الإعاقات التي أُقرّت اجتماعيّاً تحوّل: مَقْوُول، ومَبْيُوع، وأَضْيِف.. إلى مَقُول، ومَبيع، وأَضِيف. إن معظم حالات الإعلال والإبدال تمثل إعاقات، وحلولاً جماعيّة، لتَجَنُّب أسباب الإعاقة. والإعاقة هنا لا تعني المرض، الذي يفضي إلى تَعَذُّر النطق، بالضرورة، وإنّما هي نوع من العرقلة التي تحول دون السلاسة التي تختصر وتقتصد. فإن

كانت الإعاقة تبلغ حدّ المرض، فهذا أدعى إلى التجنُّب. وقد أصبح كثير من الحلول المتّخذة، يُمثّل وضعاً اجتماعياً جديداً تتخذه اللّغة بدلاً من الوضع الأصليّ الذي لو لم يُعْدَل عنه لكثرت حالات الإعاقة الفردّية في ذلك المجتمع. وبتعبير آخر، فإن كثرة الإعاقات الفردّية أصبحت تشكل ضغطاً اجتماعياً على القلّة القادرة على التعامل بسهولة مع الوضع الأصليّ. ولا شكّ في وجود صلة واضحة بين مبدأ الاقتصاد في اللغة والميل الاجتماعي إلى تكييف الصياغة اللغويّة لتحقيق هذا المبدأ.

وقد تتفاوت المجتمعات في التجرّؤ على اتّخاذ الحلول الاجتماعيّة مما أدّى إلى نشوء حقولٍ اجتماعيّة متفاوتة، وهذه الحقول الاجتماعيّة المتفاوتة هي اللهجات. فَرُبَّ لهجةٍ تَسْتَسْهِل أن تَنْطق كلمة جزّار ← ززّار (لهجة أهل طرابلس الغرب) وكلمة جنزور ← زنزور، وكلمة جَزَر ← ززر، وذلك استصعاباً للانتقال من الجيم إلى الزاي في كلمة واحدة، مع أن الجيم تبقَى في هذه اللهجة جيماً في نحو: جمل، وجماعة... وقد تَصْبر لهجة أُخرى على بعض الصعوبة في الانتقال من الجيم إلى الزاي. فيقال: جزّار. فإنْ قَلَب أحدٌ لفظة جزّار إلى ززّار، عُلم بذلك أنه مُعَوِّق، إن كان ينتمي إلى أفراد هذه المجموعة، أو عُدّ غريباً ينتمي إلى عُرف لغويّ آخر، أي إلى لهجة أخرى. وقد صَحِب اختلافَ اللهجات أن تَباهى بعض أصحاب لهجةٍ ما بخصائص لهجتهم، ونعوا على غيرهم عدم توفّر هذه الخصائص في لهجاتهم، وفي هذا مؤشّر اجتماعيّ واضح على أثر التباين اللغويّ.

لا شكّ في أن أدنى إتقان للغة – حتى من أبنائها الأصحّاء – يحتاج إلى جُهد ومرانٍ كبيرين. ولعلّ تَعَلُّم اللغة أهَمُّ إنجاز يقوم به الطفل في سنيّ حياته الأولى. والناس حسّاسون جدّاً إزاء إتقان اللغة، فمن لم يُراعِ الحسَّ الاجتماعيَّ فإنّ عليه أن يكابِد نفسيّاً واجتماعياً. ولذا كان لا بدّ من أن تُهيِّء الأمَمُ الراقية المعاهدَ اللغويّة والطبيّة التي تحاول أن تعالج حالات الإعاقة، ومردودها النفسيّ على المعاقين. وكان لابدّ للمناهج المدرسيّة من أن تعتني بمهاراتٍ خاصة، وتمارينَ مُعَدّة تُدَرَّب بها الناشئة في رياض الأطفال، وفي السنوات المدرسيّة الأولى بشكل خاص، وتأخذ بأيديهم في سبيل امتلاكِ أفضلَ لأداة اللغة. وكان لابدّ أيضاً للجامعات والمعاهد العلميّة من أن تُدَرِّس اللغة بوصفها ظاهرة

اجتماعيّة ونفسيّة، وأن تَدْرُس أسباب التطوّر اللغوي المقبول والتطوّر اللغويّ المرفوض، وأن تعِدّ المتخصّصين والبحوث الميدانيّة التي تَدْرس اللغة بوصفها ظاهرةً اجتماعيّةً تتأثّر بالتحوّلات الاجتماعيّة، ونفسيّة تتأثر بالقدرات الشخصية ومدى انسجامها مع المجتمع، وكان لا بدّ للمجامع اللغوّية أن تُراعي الأُسس النفسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة في تعريب المصطلحات. إن ظاهرة التخطيط اللغويّ لم تَعُدْ في لغات العالم الحيّة، عمليّة فرديّة، ينهض بها عالِم بنشاطه منفرداً، بل لا بدّ من أن تتضافر هذه الجهود الفرديّة وتتواصل في صورةٍ من صُور العمل الجماعيّ الذي يقف فيه اللغويّ، وعالِمُ الاجتماع، وعالم النفس، وعالم الاقتصاد... على أبعاد متعددة للظاهرة اللغويّة، تلك الأبعاد التي يصعبُ على أي مجال بمفرده أنْ يَسْبُرَ أعماقَها أو يوفّيَها حقّها من جميع جوانبها.

الحواشي

(١) انظر عمايرة، إسماعيل أحمد، ظاهرة القلقلة والأصوات الانفجاريّة، حوليّات الجامعة التونسيّة، العدد ٣٥ سنة ١٩٩٤م.

(٢) انظر الصفاقسيّ، علي بن محمد النوريّ: تنبيه الغافلين وإرشاد الجاهلين (ص ٤١) بيروت ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧م.

(٣) سورة مريم، الآية ٢٣.

(٤) انظر الفرّاء، يحي بن زياد: معاني القرآن ١٦٤/٢، تحقيق محمد علي النجار، الدار المصريّة للتأليف والترجمة، القاهرة (بدون تاريخ).

(٥) انظر عمايرة، إسماعيل أحمد، المستشرقون والمناهج اللغويّة ص ٧٧ طبعة دار حنين، عمان ١٩٩٢م.

(٦) انظر الفرّاء (معاني القرآن) ١٦٤/٢.

(٧) انظر ابن منظور، محمد بن مكرم: لسان العرب (مادة دبج ٢٦٢/٢) طبعة دار صادر، بيروت.

(٨) انظر ابن منظور: لسان العرب (مادة ستق ١٥٢/١٠)

(٩) ابن منظور: لسان العرب (مادة سبج ٢٩٤/٢).

(١٠) ابن منظور لسان العرب (مادة دبج ٢٦٢/٢).

(١١) انظر في تحقيق هذه الكلمات: ف. عبد الرحيم: المُعرّب لأبي منصور الجواليقيّ، دار القلم، دمشق ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

(١٢) انظر ابن هشام، جمال الدين يوسف: أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار إحياء التراث العربيّ، بيروت ١٩٦٦م.

(١٣) انظر نولدكه

Nöldeke, Theodor: Kurzgefasste Syrische Grammatik, Leipzig 1898

(١٤) انظر ف. عبد الرحيم، القول الأصيل فيما في العربيّة من الدخيل ص ٨٩، مكتبة لينة للنشر والتوزيع، دمنهور، مصر ١٤١١هـ - ١٩٩١م.

(١٥) انظر الفيروزآبادي، محمد بن يعقوب: القاموس المحيط (مادة خوش ٢٨٣/٢)، دار الجيل، بيروت.

(١٦) انظر مثلاً سورة الأنعام، الآية ١٥٢، والأعراف، الآية ٣.

(١٧) انظر بروكلمان

Brockelmann, Carl: Grundriss der Vergleichenden Grammatik der semitischem Sprachen, (1:136) Berlin 1908.

(١٨) عمايرة، إسماعيل أحمد: ظاهرة «بجد كفت» بين العربيّة واللغات الساميّة - دراسة مقارنة، مجلّة مجمع اللغة العربيّة الأردني، العدد (٣١) ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

(١٩) ابن جنيّ، عثمان: المنصف شرح كتاب التصريف ١٦٠/١، تحقيق إبراهيم مصطفى وعبد الله أمين، مصر

١٣٧٣هـ - ١٩٥٤م.

(٢٠) انظر ابن جنيّ: المنصف ١٦١/١. والبيتان مجهولا القائل.

(٢١) انظر عمايرة: ظاهرة القلقلة ص ١٠٧ وما بعدها.

(٢٢) سورة القصص، الآية ٦٦.

(٢٣) سورة الأنبياء، الآية ٣.

(٢٤) سورة القيامة، الآية ٢٧.

(٢٥) انظر مكي بن أبي طالب القيسيّ: الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها ٥٥/٢، تحقيق محيي الدين رمضان، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

(٢٦) ذكر ابن منظور هذا عن بعض العرب. انظر اللسان: مادة حظظ ٤٤٠/٧.

(٢٧) انظر عمايرة، إسماعيل أحمد: ظاهرة التأنيث بين العربيّة واللغات الساميّة ص ٥٢، دار حنين للنشر، عمان ١٩٩٣م.

(٢٨) ماريوباي: لغات البشر (ص ٢٦) ترجمة صلاح العربي، القاهرة ١٩٧٠م.

(٢٩) ابن جنيّ: المنصف ١٠/١، والبيت لرؤبة بن العجّاج.

(٣٠) ابن جنيّ: المنصف ١٦٠/١.